جامعة تكريت / كلية التربية للعلوم الإنسانية / اللغة العربية

المرحلة: دكتوراه/ لغة

المادة: مناهج لغوية حديثة

عنوان المحاضرة: المنهج الوصفي

التدريسي: الأستاذ الدكتور قاسم خليل إبراهيم

العام الدراسي ٢٠٢٥-٢٠٢٦

المنهج الوصفي

كانت البحوث الاستشراقية اللغوية تسير على المنهج التاريخي المزدهر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وفي القرن العشرين، مال البحث اللغوي الى المنهج الوصفي خاصة بعد ظهور دي سوسير ومدرسته في العقد الثاني من القرن العشرين، ثم مدرسة براغ، ثم المدرسة الأمريكية الأنتروبولوجية، ومن أعلامها :سابير وهاريس، وبلومفيلد .

وهناك صلة بين المنهج الوصفي والمناهج الأخرى فقد كان البحث اللغوي يعمد إلى الوصف قبل القرن العشرين والمنهج التاريخي أو غيره في أي فترة من تاريخ البحث اللغوي لا يمكن أن يستغني عن وصف الظاهرة اللغوية قبل دراستها دراسة معيارية أو تاريخية، أو تاريخية مقارنة، ثم اخذ المنهج الوصفي اتجاهاً متميزاً عن الاتجاهات السابقة، وطبق خطواته على اللغة، متجاوزاً في ذلك المبادئ الوصفية التي لا يستغني عنها أي منهج لغوي يمكن أن يتصدى لبحث الظاهرة اللغوية.

مميّزات المنهج الوصفي، ومفارقاته للمناهج الأخرى:

أولاً :الاهتمام باللغات الحية والعزوف عن دراسة اللغات القديمة: يهتم المنهج الوصفي بواقع الظاهرة اللغوية وبجانبها المنطوق، وليس بتاريخ تطورها أو جانبها المكتوب كما يفعل المنهج التاريخي؛ لأن قواعد الإملاء والكتابة لن ترقى في وصف الظاهرة اللغوية، مهما دقت هذه القواعد، لذلك عزف الوصفيون عن دراسة اللغات القديمة كالسنسكريتية، واليونانية القديمة، واللاتينية؛ لأنه لم يعد يُسعف في وصفها إلا الاعتماد على القدرة الناقصة للكتابة وقواعد الإملاء، وفي المقابل أقبلوا على دراسة اللغات الحية.

ثانياً :الاهتمام بالنحو التعليمي:

١_ الطريقة الوصفية أكثر إفادة في مجال التعليم من الطريقة التاريخية، أو التاريخية المقارنة لأنها قريبة النتائج، دانية الثمار، ولأن التاريخية تتجاوز في أهدافها البعد التعليمي للبحث اللغوي، لذلك اتبعت الدراسات التعليمية المنهج الوصفي في وضع الكتب التعليمية.

٢- مهمة المنهج الوصفي وصف الظاهرة اللغوية دون مقارنتها، أو الوقوف على مراحل تطورها، يصفها كما هي، من حيث اطراد قواعدها ومدى شيوع هذه القواعد. أما المنهج التاريخي فيتطلع إلى أن يعرف :هل هذه الكلمة أو تلك كانت تنطق وتستعمل في عصورها الغابرة على نحو ما تنطق

وتستعمل عليه الآن؟ فهو يقارن طريقة نطقها وتفرع معانيها في هذه اللغة بما جاء عليه نطقها واستعمالها في لغات أخرى تنتمي إلى الأسرة اللغوية نفسها.

٤- المنهج الوصفي لا يهتم بالبحث عن أصل الكلمات، ومهمة الباحث الوصفي معرفة ما تؤديه هذه الألفاظ من معاني في تلك اللغات، لا إلى ما كانت عليه في لغتها الأصلية، بالتالي لا يهتم باستنباط العلاقات الحضارية والتاريخية بين الشعوب من خلال اللغات، أما أصحاب المنهج التاريخي يعولون كثيراً في بحوثهم على جانب التطور، ويبحثون عن وجوه الاختلاف بين مراحل اللغة على صعيد الألفاظ، والتراكيب والأصوات، والأوزان والمقاطع وغيرها.

ثالثاً - الاهتمام باللهجات المحكية: تولد عن اهتمام الوصفيين باللغة في صورتها المنطوقة دون المكتوبة عناية كبيرة باللهجات، اما المنهج التاريخي لا يبالي باللهجات كثيراً، لافتقار القديمة منها إلى الوثائق الكافية.

علم اللغة الجغرافي (الأطلس اللغوي)

أحد فروع علم اللغة العام الذي يهتم بدراسة اللغات وكيفية توزيع اللهجات على مختلف مناطق العالم، وتحديد مدى أهمية الاطالس الجغرافية في تسجيل مختلف الظواهر اللهجية واللغوية. أو هو دراسة اللغات من حيث توزيعها الجغرافي والسكني وتأثير كل لغة في اللغات الاخرى. ولدراسة اللهجات جغرافيا أهداف شتى، كالتأصيل اللغوي، وهو أوجهها، أو التمهيد لاستقلال هذه اللهجات عن الفصحى، وما يعنيه ذلك من تفتيت عوامل التوحد الثقافي للأمة.

دواعي اهتمام المستشرقين الوصفيين باللهجات العربية:

أ- العناية باللهجات عموما: وبخاصة مع مطالع القرن العشرين على صعيد اللغات الأوروبية وغيرها، والأحيان على حساب إهمال اللغات الرسمية المتداولة فضلا على المنقرضة.

ب- دافع استعماري تزامن نضج المنهج الوصفي مع طغيان الحركة الاستعمارية للبلاد الإسلامية فلا بد من متخصصين باللهجات الدارجة لأصحاب البلاد المستعمرة، ليسهل حكمهم والتعايش معهم.

ج- دافع اقتصادي الرغبة في دراسة الشعوب الإسلامية، لتحقيق مكاسب اقتصادية وتجارية، ولا يتأتى ذلك ما لم يقفوا على القصص الشعبية والحكايات، والعادات والتقاليد، ليتمكنوا بذلك من تزويد مصانعهم ومتاجرهم بمستلزمات هذه الشعوب، وبكيفية التخاطب معها.

د - دافع ديني الرغبة في نشر أفكارهم الدينية، أو العلمانية أو سواها.

وهذا ما يؤكد أن المستشرقين لا ينظرون إلى اللغة العربية من خلال ربطها بالرسالة المنوطة بها، وهي حفظ القرآن الكريم، فكيف بهم إذا جمع بعضهم إلى ذلك سوء نية.

الازدواجية في اللغة: وتعني ان يوجد في المجتمع مستويان من اللغة، الأول: فصيح، والأخر: عامي يسير الى جنب العربية الفصحى في مختلف القطاعات.

ويذهب المستشرقون الذين يدعون إلى العامية إلى ضرورة أن يحسم الأمر لصالح اللهجات، لا إلى صالح الفصحى، لأن الفصحى عندهم تكتسب بالتعلم، كأي لغة ثانية بعد أن يكون المرء قد تمكن من لهجته الدارجة، بوصفها اللغة الأم .

رابعاً :الاهتمام بالدراسات الإحصائية: من فوائد المنهج الوصفي اهتمامه بالجانب الإحصائي، وهو الوقوف على الظواهر اللغوية الأكثر شيوعاً في اللغة الواحدة، وكانت محاولاتهم الإحصائية تستهدف إحصاء أكثر المفردات شيوعاً ثم أكثر التراكيب النحوية استعمالاً، وقد انتفعوا بهذه المحاولات تعليمياً، أخذ كثير من المستشرقين باتباع المنهج الوصفي الإحصائي في دراسة العربية، فكان من أظهر أعمالهم في باب المفردات العمل الذي قام به هانز فير في معجمه معجم اللغة العربية المعاصرة :عربي _ ألماني.

أهمية المنهج الإحصائي اللغوي:

١ – على الصعيد المعجمي: لم يعد التأليف المعجمي عملاً مرتجلاً يقوم على الاجتهاد الشخصي في اختيار الكلمات التي تقدمها الموسوعة اللغوية للقارئ فقد أصبح في ميسور الباحث المعجمي أن ينتقي مادته وفقا لخطته التي يرمي إليها، فإن أراد من معجمه أن يقدم أيسر الألفاظ تناولاً في اللغة وأكثرها شيوعاً تخير لذلك من خلال ما تسفر عنه القوائم الإحصائية لأكثر الألفاظ شيوعاً ما يفي بحاجته، وبالمقدار الذي يراه مناسباً لقارئه من حيث المستوى الثقافي أو العلمي أو مستوى العمر إلى غير ذلك من أهداف.

2– على الصعيد التعليمي: النتائج الإحصائية أسهمت في خدمة كثير من اللغات العالمية. إن كثيراً من الكتب التعليمية التي أعدت لتعليم الناطقين بالعربية، ما يزال قائماً على الاجتهاد الشخصي في اختيار ما ينبغي أن يقدم للطالب سواء أكان ذلك في مجال المفردات أم في مجال التراكيب .

٣– على الصعيد الثقافي: استطاع الباحثون الغربيون عن طريق الجهود الإحصائية، أن يعيدوا صياغة كثير من الأعمال الأدبية الكبيرة التي لم يعد في ميسور الناس في هذا العصر أن يفهموا بيسر ما كتبته أقلام الناس قبل قرون.

٤ – على الصعيد التاريخي: الأعمال الإحصائية تقف بنا تاريخيا على واقع اللغة في مرحلة ما، ومن خلاله يمكن أن نوازن بين صورة الماضي وصورة الحاضر لنعرف ما طرأ على اللغة لأنها الظاهرة اللغوية ظاهرة اجتماعية تلاقي ما يلاقيه الفرد في المجتمع، فقد تزدهر وقد تتضعضع، وقد تموت.

خامساً :الاهتمام بالجانب الصوتي في دراسة اللغة: اهتم الوصفيون بالأصوات اهتماما بالغا نتيجة اهتمامهم باللغات المنطوقة، ودراسة اللهجات، والوقوف على خصائص كل لهجة ومميزاتها، والقدر المشترك بين لهجة وأخرى.

الفرق بين نظرة الوصفيين والمعياريين الى انحرافات الكتّاب صرفيا ونحويا ودلاليا: المعيارية العربية اعتادت أن تنظر إلى انحرافات الكتاب على أنها أخطاء يجب إصلاحها، اما الوصفيون فينظرون إلى الأخطاء على أنها محاولات لدخول اللغة في مرحلة جديدة، وعلى هذا فإن هذه الأخطاء – في نظرهم – ليست سوى ملامح جديدة لمرحلة جديدة.

موقف النظرية الوصفية والمعيارية من قواعد النحاة:

الوصفيون عندهم ان القواعد النحوية التقليدية لا تنبع من مقتضيات المنهج الوصفي، بل هي معيارية، لا يهمها وصف اللغة بمقدار ما يهمها اطراد قواعدها أي النحاة القدامى غضوا النظر عن الاستعمالات اللغوية المعارضة لقواعدهم، وفي هذا يقول ماريو باي واصفا جهود هؤلاء النحويين :فقد سنوا القوانين النحوية ما شاء لهم هواهم، ثم دأبوا على التقليل من شأن أي استخدام للغة فيه خروج على قوانينهم واعتبروا أنه من باب الخطأ.

ورد عليهم د. إسماعيل عمايرة: لا شك في أن اللغة العربية قد وضعت قواعدها وضعاً روعي فيه الرغبة في اطراد القواعد، وهو أمر لا مناص منه في سبيل الوصول إلى صيغة مفهومة مطردة للغة، وبخاصة في المجال التعليمي، فالمعيارية مبدأ مهم في رسم قواعد اللغات، ولا ينبغي أن تكون المعيارية مقرونة بهوى النحاة بالضرورة، لأنها ترتكز على أسس وصفية، فما اطرد أو شذ أو جاز لا يأتي به النحوي على هواه وإنما من واقع النصوص اللغوية بقدر ما كان في وسع النحاة استخلاصه.

وموقف إبراهيم أنيس من النحاة القدامى جانب فيه الصواب ونظر إلى النحاة نظرة قاسية وفي نظره ليس لظاهرة الاعراب ما يسوغ اطرادها، فهي مجرد قصة استمدت خيوطها من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية، ثم حبكت، ونسجت بإحكام في أواخر القرن الأول الهجري أو أوائل الثاني، على يد قوم من صناع الكلام سموا بالنحاة، وظاهرة الإعراب – في نظره – لم تكن سليقة في متناول العرب جميعاً وهو بهذا الافتراض يخالف مذهب النحاة في أن اللغة معربة، والنصوص المروية من صنع بعض النحاة بعد أن أسسوا قواعدهم وأصولهم.

وحقيقة ظاهرة الإعراب لم تعد ظاهرة يجادل في قدمها بعد أن استطاع علم الساميات المقارن أن يثبت أصالتها في العربية بعد أن ثبتت أصالتها في شقيقاتها الساميات التي تسبق زمن التقعيد

النحوي عند العرب بقرون عديدة .ومن التعسف أن يُنكر الإعراب في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم . وغيرهما مما وصل إلينا من النصوص المعربة المتواترة في روايتها.

وردّت المعيارية على الوصفية: إذا كان من شعارات المدرسة الوصفية أن اللغة الحقيقية هي اللغة التي يستخدمها الناس فعلاً، لا اللغة التي يعتقد البعض أن على الناس أن يستخدموها، فإن من حق أصحاب المدرسة المعيارية أن يتساءلوا : أليست اللغة – فيما يؤيد الوصفيون – في حركة دائمة مستمرة، فهي تختلف من زمن إلى زمن، وهي تتطور على عدة محاور زمنية ومكانية، وطبقية وحضارية فإذا أردنا أن تؤدي اللغة وظيفتها الاجتماعية (التواصل) بين أكبر عدد من الناس أفليس منطقياً عندئذ أن يُهمل من أجل اطراد القواعد، كثير مما يمكن أن يقرره المنهج الوصفي من ظواهر لغوية؟ ثم أليس من حق المعياريين في سبيل هذه الغاية أن يقفوا موقفاً حازماً من الظواهر الشاذة أو النادرة حتى لو كانت لبعض الفحول من شعراء الجاهلية كالنابغة على حد قول إبراهيم أنيس.

لا شك في أن المعياريين قد تجاوزوا متطلبات الوصف في كثير من الأحيان، في سبيل اطراد القواعد، وبخاصة في سبيل تسويغ الاطراد وتعليله، وأسرفوا في استخدام الأساليب المنطقية والفلسفية لهذا الغرض، أما مبدأ الاحتفاء بالقاعدة المطردة والاهتمام بالمعيار فهو أمر مهم في تحقيق التواصل اللغوي، الذي لا يتحقق بالتركيز المكافئ على الشاذ والنادر.

ويجب الانتباه الى ان اللغات القديمة كاليونانية، والعبرية، والسريانية، والسنسكريتية... لغات تاريخية أدت دورها ثم انقطعت عن الحياة منذ أمد بعيد، أما العربية فهي لم تنقطع عن الحياة، وما يزال علم القراءات القرآنية فضلا عن الاستخدام الحي المنطوق والمكتوب للغة الفصحى دليلا على تواترها المستمر دون انقطاع، وعلى وفائها بمتطلبات التفاهم بها .ومن هنا كان من التعسف أن تؤخذ العربية بتلك المعايير التي أخذت بها اللغات الأخرى البائدة.

دعوى المستشرقين الى إعادة دراسة او وضع النحو العربي لشكهم في جدوى الدراسات المعيارية القديمة هو الذي حدا بهم إلى محاولة إعادة تقعيد اللغة على أسس وصفية جديدة، منها :

١ – ضرورة العودة إلى النصوص الأدبية ثانية وعدم الاكتفاء بقواعد النحاة، كما فعل نولدكه الذي رصد الظواهر اللغوية التي يعتقد أنها تخرج على ما ألفناه من قواعد النحو العربي، وخصص لهذا كتاباً تجمعت لديه مادته على مدى أربعين عاماً، وهو كتاب في قواعد العربية الفصحى، ولعدم اطلاعه الكافي على التراث النحوي جعله يذكر كثيرا مما ذكره النحاة من قبل.

2– مراعاة الفصل بين مستويات اللغة، كالفصل بين استعمال اللغة في مجال الشعر، واستعمالها في النثر الأدبي الرفيع، كالخطب، والمديح ، ووصف المآثر، والنثر الأدبي الدارج، كالأمثال والحكايات.

3- ملاحظة الفروق التي تترتب على اختلاف الموضـوعات وأغراضـها، وانتماءاتها زماناً ومكاناً، وإبراز الفروق الشـكلية بينها .وقد شـك كثير منهم في صـحة بعض الشـواهد النحوية التي أوردها النحاة، فعدوها مصـنوعة ولكن كثيراً من الجهود التي قدمت في هذا المجال تحتاج إلى جهود أخرى في مراجعتها والتوثق من مدى صـحة نسبتها - كما زعموا - إلى عصـرها، ومصـرها، وقائليها وهذه المسألة مربوطة على نحو ما بالشك في رواية الشعر القديم، وما أثير حولها من جدل.

٤- إجراء دراسات وصـفية مسحية للظاهرة اللغوية، على نحو ما فعل بيرجشتريسر في أدوات النفي والاستفهام في القرآن الكريم.